بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الانبار
كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

مفهوم النص وعناصره في كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر(قراءة وتحليل)

ا.م.د.نصرة أحميد جدوع الزبيدي

آب /2013

المدخل

يحتل كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت327هـ) مكانة متميزة في المكتبة النقدية العربية,وذلك لكونه أول كتاب نقدي عربي منهجي بإجماع الدارسين والباحثين ,فكتابه أول محاولة منهجية لدراسة الشعر على أساس نظري واضح ومتكامل**(1)** وكما يصرح بذلك صاحب الكتاب نفسه في مقدمته بعد أن رأى القصور من خلال إغفال جهود من النقاد وعلماء الشعر كالأصمعي في (فحولة الشعراء) وابن سلام في طبقاته وابن قتيبة في (الشعر والشعراء)وكتب الجاحظ البيان والتبيين والحيوان إلى جانب كتب ثعلب والمبرد وابن المعتز وغيرهم**(2)**,والحق أن العودة إلى كتابه تكشف صحة هذا الزعم إلى درجة كبيرة,لا لكونه كتابا ممنهجا وفق أسس علم النقد الرصين وحسب بل لأنه ثمرة من ثمرات التلاقح الحضاري بين الثقافة العربية

واليونانية, ناهيك عن تأثير من تتلمذ على أيديهم ونهل من علمهم وما اشتهر به عصره والذين حوى ما عندهم من علم ولغة ورواية وأدب**(3)**, وحظه من الثقافة الوافدة لم يكن بأقل من حظه من الثقافة العربية والإسلامية وأدبها,وقال عنه ابن النديم بأنه احد الفصحاء البلغاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليه في علم المنطق **(4)** ,والى جانب ذلك فان الكتاب يمثل خلاصة ما وصلت إليه الرؤية العربية لمفهوم الشعر بوصفه علما ذا أصول وقواعد وأركان مستفيدا من النظرة الإغريقية المنظمة له من خلال كتب أرسطو وغيره,كما استفاد من درايته بالمنطق بشكل واضح, الأمر الذي منحه القدرة على التصور والتقسيم العقلي لأبواب دراسته,مثلما أن اختياره لمصطلح نقد قد سبق إليه , وهو الذي انتهى المعجم الأدبي بتعريفه إلى انه فن تحليل الآثار الأدبية والتعرف إلى العناصر المكونة لها للانتهاء إلى إصدار حكم يتعلق بمبلغها من الإجادة ويصفها وصفا كاملا معنى ومبنى ويتوقف ند المنابع البعيدة والمباشرة والفكرة الرئيسة والمخطط والصلة بين الأقسام وميزات الأسلوب وكل مركبات الآثار الأدبية**(5)**,وعند قراءة كتاب نقد الشعر نجده يطابق في منهجه وأهدافه وأقسامه هذا التعريف الدقيق للنقد بوصفه علما,من هنا نفهم سر الاهتمام الكبير بالكتاب ومكانته وإدراك صاحبه وغيره لقيمته ,وهي ذاتها الأسباب التي دفعت لدراسته بحثا عن مفهوم النص وحدوده عند قدامة والتي آثرنا اقتصارها على أقسام ثلاثة تناول أولها مفهوم النص عنده فيما عني الثاني بعناصر بناء النص الشعري وعرجنا فيه على ما أسميناه أنواع النص عنده تبعا لما ورد في ثنايا معالجاته لها وتناول الثالث جدلية الإبداع والتلقي وأثرها في بناء النص والذي اقتفينا فيه تأثر قدامة وتأثيراته في الدرس النقدي العربي.

اولا- مفهوم النص عند قدامة بن جعفر

لابد أولا من التأكيد أن مفهوم النص ينطبق على النص الشعري في هذا الكتاب كما يؤكد ذلك عنوانه(نقد الشعر) ,أما لماذا الشعر دون النثر فذلك أمر يعود إلى السيادة الشعرية الطاغية في تاريخ الأدب العربي في مجمل عصوره ,فهو ديوان العرب وميدان فخرها وابرز إبداعاتها ,ولسنا بصدد الحديث عن نزلة الشعر عند العرب إلا أننا نفهم من ذلك سر تمحور النقد العربي القديم في جلِ توجهاته حول فن الشعر,من هنا فالبحث عن النص عند قدامة بحث عن الشعر,وهو يجعل من قضية (حد الشعر)أي تعريفه المدخل لدراسته النقدية ,ليس فقط لأنهم اعتادوا أن يعرفوا أولا بالمصطلح ثم يذكرون أقسامه بل لأنه جعل من هذا المدخل فرصة لعرض رؤيته الى الشعر وكذلك نظرته إلى ما سبق من محاولات تعريفه فيقول:(انه قول موزون مقفى يدل على معنى,فقولنا قول دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر,وقولنا موزون يفصله عما ليس بموزون,إذ كان من القول موزون وغير موزون,وقولنا (مقفى) فصل بين ما له من الكلام الموزون وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع,وقولنا(يدل على معنى)يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك ن غير دلالة على معنى)**(6)**فالنص الذي يُنظِر لوجوده المادي هنا جنس من القول وهو مفهوم يتناسب والطبيعة الشفاهية للشعر العربي وهي السمة المميزة له بسبب عدم تدوينه والتعارف على روايته وحفظه شفهيا حتى بلوغ عصر التدوين كما هو معروف**(7)**وهو يضع له أركانا فهو ليس جملة ألفاظ ومعاني تنتظم في سياقات تركيبية وحسب بل جعل من تمامه الوزن والقافية ,وهما عنصران مميزان لبنية النص الشعر ليس عنده وحسب بل عند جميع علماء الشعر القدماء,وفي الحقيقة ان هذه الرؤية لمفهوم النص لا تكاد تنفرد عما سبقها من تعريفات بشيء سوى (القول) الذي عرفه به ,فلم يكن عند من سبقه أكثر من كلام موزون مقفى يقوم على معنى فهو عند ابن طباطبا كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي ان عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق ونظمه معلوم محدود)**(8)**,وأضاف من جاء بعده جملة أمور إلى تعريفه فابن رشيق يضيف النية إلى الأركان الأربعة بقوله(الشعر يقوم بعد النية على أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية)**(9)**,ونعثر في جميع التعريفات على الأركان العروضية للشعر وهو أمر طبيعي لان العروض والقافية هما قوام الشعر ولم يخرج بذلك عمن سبقه من الاهتمام إلا انه

يوازن جميع العناصر ويجعلها ذات أهمية واحدة في كتابه فيدرس مزاياها وسماتها وعيوبها ,وهو على حد تعبير احد الباحثين لم يكن بصدد القول في موضوع العروض والقافية لكن أراد أن يكون بصيرا بنقده في وقت عد نفسه فيه عالما بالشعر وان ما يربطه بالمنطق وبأرسطو تحديدا هو اعتماده على المقولات**(10)**وكما يقول المناطقة فان تعريفه جامع مانع لأنه بدأ (بالجنس العام) ثم انتهى إلى ما يخصه (الوزن أي الفصل)واخرج من الأقاويل ما ليس من جنسه وخصه بالقافية والوزن**(11).**

إذن فانشغاله أصلا لم يكن بماهية النص الشعري بل بعناصره وستطغى هذه النظرة الجزئية على مجمل دراسة النص عنده وعند غيره من خلال الاهتمام بالأبيات المفردة ,وقد لا نعثر على نظرة متكاملة حقا للنص إلا عند الجاحظ(ت255هـ) في قوله (وأجود الشعر ما رايته متلاحم الأجزاء سهل المخارج,فتعلم بذلك انه قد افرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان)**(12)** و ابن قتيبة(ت213ه) في موضوع بنية القصيدة والذي دعا فيه إلى الموازنة بين أقسام القصيدة بحكم كون القصيدة العربية القديمة متعددة الموضوعات والأقسام فيقول(والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد)**(13)**فهذه نظرات كلية إلى النص بوصفه جسدا واحدا ,كما نعثر عليها أيضا في حديثه عن موضوع ترابط الأبيات وحديثه عن التكلف الذي يراه في كون البيت مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لفقه ونقل قول احد لشعراء لآخر أنا اشعر منك'فسأله:وبم ذلك ؟قال: لأني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه**(14)**,وفي كلامه عن موضوع الصناعة يؤطر لمفهوم بناء النص تاطيرا نظريا دقيقا فيقول: (ولما كانت للشعر صناعة وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال ,إذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان,احدهما غاية الجودة,والآخر غاية الرداءة,وحدوده بينهما تسمى الوسائط)**(15)**فهو يضع تعريفا تقنيا للنص بكونه صناعة لها صناعها وأدواتها وطرقها التي تسلك,وهو يقترب بذلك من الرؤية البنيوية للنص بكونه حالة مادية لغوية تعتمد في بنائها على التشكيل وإنشاء العلاقات الداخلية بين الكلمات عن طريق التركيب,مع أن عبد القاهر الجرجاني(ت471ه) قد سبق الى ذلك في بحثه المعمق لنظرية النظم القائمة على تأكيد قيمة التركيب في تشكيل المعنى**(16)**مثلما أن الجاحظ(ت255هـ) في مباحثه الشعرية قد تكلم عن كون الشعر (صناعة وجنس من التصوير)**(17).**

وبما أن الشعر عنده صناعة فهو يرى بان لها موادا وينفي أن يكون المعنى هو الأهم في ذاته في بناء النص(فالمعاني بمنزلة المادة الموضوعة)كما يرى,على الرغم من كونه المادة

الأساسية لأنه متاح للشعراء ولهم ان يتكلموا فيما يحبون ويؤثرون من غير أن يحضر عليهم معنى,مثله مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة والاهم أن يبلغ الشعراء التجويد إلى الغاية المطلوبة**(18)**وهذا الكلام يجعل الذهن ينصرف إلى الاعتقاد بعنايته بالألفاظ,غير انه يهمل الحديث عن اللفظ في كلامه عن حد الشعر ويراهن على الإبداع في تشكيل المعاني, فحتى المعنى الفاحش برأيه يمكن أن ينتجه الشاعر بشكل حسن وهي نظرة متحررة عن الإطار الأخلاقي الذي درجنا على رؤيته عند من سبقه من علماء الشعر كابن قتيبة مثلا وحيث النزعة الأخلاقية والفقهية هي المسؤولة عن أشعار الضرب الثاني من ضروب الشعر التي وضعها وهو الضرب الثاني الذي يحسن لفظه ويحلو ولا فائدة في معناه**(19)**,وهي ذاتها النظرة المسؤولة عن استبعاد ابن سلام للشاعر عمر بن أبي ربيعة من طبقاته لسبب أخلاقي.

ويقيم مقاربة منطقية في نظرة للشعر وارتباطه بالمعنى المجود وفهمه له فيجعله بمنزلة الروح من الإنسان الذي يعرفه بكونه حيا ناطقا ميتا,وكذا عنده المعنى من المنطق فهو روح اللفظ وهو جنس للشعر موجود فيه,لينتهي إلى تقرير أن الشعر هو ما اجتمع من هذه الأسباب التي يحيط بها وحده ويقارنه بالمجتمع المؤلف من أمور مترابطة,وهنا يكمن عصب النظرة النقدية لمفهوم وحدة النص عنده على الرغم من تعدد عناصره وتفاوتها في أهميتها.

وإذا عدنا إلى كلامه عن الأسباب التي يأتلف منها الشعر وجدناه يجعلها تشكل أربعة أقسام وهي اللفظ مع المعنى واللفظ مع الوزن والمعنى مع الوزن والمعنى مع القافية وهي التي يسميها(المفردات البسائط)التي يدل عليها حده**(20)**وتكون هذه الأربعة مع الأربعة التي يشتقها منها ثمانية تمثل عنده أجناسا للنص,وهو يحكم بذلك على النص بالتنوع تبعا لما يأتلف منه وسيرد تفصيل تلك الأقسام والنظر إليها لاحقا,غير أن ما يهمنا هنا هو انه يرى أن النص بالمحصلة ثمانية أنواع أصلية ومشتقة تبعا لذلك,وهو تقسيم لم نألفه عند غيره وفقا لقاعدة الثنائية التي يضعها,وهو ويرى أن أساس الائتلاف هي عناصر اللفظ والمعنى والوزن ولا يجعل للقافية قيمة في ذلك وإنما أدرجها لأنها تدل على ائتلاف مع سائر البيت بوصفها لفظة كسائر ألفاظ البيت الأخرى, ومن ثم يتكلم عن كون هذه الأقسام تقع بين مستويات الجودة والرداءة التي تحدث عنها ,وهو بذلك يجعل النص نوعين رئيسين هما:

1- نوع بحسب ما يأتلف منه من أسبابه الأربعة.
2- نوع بحسب جودته ورداءته او توسطه بينهما.

ثانيا- عناصر بناء النص الشعري

يشتق قدامة عناصر بناء النص الشعري من تعريفه للشعر كما قدمنا ,ويسميها أسبابا يجعلها أربعة رئيسية ويشتق منها أربعة أخرى ,ولننظر إلى رؤيته لهذا الأسباب منفردة,فبالنسبة

للفظ بدا انه غير مهتم بتعريف ماهيته ويركز اهتمامه على وضع خصائص جودته وهي خصائص تقنية سبقه إليها البلاغيون وأهل الأدب كالجاحظ وغيره ويشترط فيه السماحة أي البساطة والخلو من التعقيد وسهولة مخارج الحروف مع الخلو من البشاعة,وأما الوزن فلا يشترط فيه غير سهولة العروض حتى وان كان الشعر الذي يضمه خاليا من نعوت الشعر الأخرى والترصيع ,فيما يشترط لجودة القوافي أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج وان تقصد لتصيير مقصد المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها,واشترط في المعنى مواجهة الغرض المقصود غير عادل عن المطلوب **(21)**وفي ثنايا ذلك يعمد إلى الإسهاب في ذكر الأمثلة ليقرب إلى القارئ ماهية النص الذي يتكلم عنه شارحا نقاط الجودة فيها باسلوب يبتعد عن السمة التأثرية العابرة التي ألفناها عند قدماء الباحثين .

وأما معالجته النقدية للعناصر الأربعة الرئيسة المركبة التي تكون أنواع النص عنده فجاءت كما يأتي:

1- نعت ائتلاف اللفظ مع المعنى:

بعد أن يفصل القول في عناصر الشعر وهي اللفظ والمعنى والوزن والقافية مسهبا في كلامه عن المعنى لأنه يمتد فيه إلى باب الغرض الشعري الذي يدرجه في باب المعنى بما يؤكد انه لا يقصد بالمعنى ما قابل اللفظ من دلالة,وهي عنده معان ستة يسميها الأعلام من أغراض الشعر في المعاني,وه يجعل المعنى مواجها للغرض المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب **(22)**, وحين يتكلم عن ائتلاف اللفظ مع المعنى لا يفسر المقصود من الباب بل يعمد إلى ذكر أنواعه مباشرة وهي المساواة والإشارة والإرداف والتمثيل, فالمساواة أن يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد ولا ينقص عنه ويعد ذلك البلاغة بعينها,والإشارة اشتمال اللفظ القليل على معان كثيرة بالإيماء إليها ,وهي قيمة جمالية اعتمدها النقد البلاغي مقياسا فنيا ومعيارا نقديا لتحقيق التوازن بين الفكرة والتعبير عنها**(23)**,والإرداف أن يريد الشاعر الدلالة على معنى فلا يأتي باللفظ الدال عليه بل بلفظ مرادف له,ومنهم من يسميه التتبيع وهو مصطلح عريق تبدلت تسميته عبر العصور فالجاحظ يسميه التعريض والكناية ويسميه ثعلب لطافة المعنى ,ولا يبدو أنهم اختلفوا في غير التسمية والدلالة واحدة ,غير أن قدامة ادخله في نعوت ائتلاف المعنى واللفظ وسبق إلى ذلك**(24)**,والتمثيل هو الإشارة إلى معنى بكلام يدل على معنى آخر وينبئ هذا المعنى الآخر والكلام المستعمل على المعنى المراد,ومنهم من يسميه المماثلة ويعني في أصله التشبيه ويرتبط بالاستعارة عند أوائل البلاغيين وادخله قدامه في البديع**(25)**,وهنا تكمن إشكالية دلالية تتعلق بالمصطلح من جهة وبالدلالات التي يومئ إليها من جهة أخرى,ولنقرا نظرته في قضيتي المساواة والإشارة للاختصار,فليس ممكنا بأي حال تحقق حالة المساواة التامة بين اللفظ والمعنى

حتى وان كان يراهن على قيمة التركيب في تحقيقها ,ولو أخذنا واحدا من شواهدها عنده لفهمنا ما يقصده بالمساواة ومنها قول أمريء القيس:**(26)**

فان تكتموا الداء لا نخفه وان تبعثوا الحرب لا نفقد

وان تقتلونا نقتِـــــــــــــــــلكم وان تقصدوا الدم لا تنصد

أو قول زهير:**(27)**

ومهما يكن عند أمريء من خليقة ولو خالها تخفى عن الناس تعلم

فالمساواة المتحققة في المعاني المتتابعة تستلزم عدد الوحدات اللفظية نفسه وحيث بنية التركيب في الجمل الأربعة الأولى (أداة الشرط وفعله وجوابه) والشرط نفسه مع أقسام جملته يتحقق في البيت الثاني وكذا في اغلب شواهد هذا القسم فهي مساواة تركيبية وليست معنوية ولا يتحقق فيها التناسب المعنوي إلا من خلال تناسب لفظي وليس في ذلك تميز لشاعر عن غيره لان المسالة حسابية, كما أنها تملي نوعا من الإيقاع الرتيب على النص مثلما أنها تؤكد مبدأ استقلالية البيت الواحد عن غيره بما يجعل مفهوم النص الكلي مفككا لا بل غائبا عن تفكير قدامة وهو يعمد إلى هذه النظرة التجزيئية له.

ويعود ليخالف نسق الحكم على ائتلاف اللفظ مع المعنى من خلال حديثه عن الإشارة ففي تعليقه على بيت أمريء القيس: **(29)**

على هيكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جري غير كز ولا واني

يقول:فقد جمع بقوله (أفانين) جرى على ما لو عد لكان كثيرا**(30)** وهنا يخرج عن التركيب إلى اللفظ المفرد ومستويات المعنى المختزنة فيه ,وبذلك تختلط عنده النظرة إلى ماهية الائتلاف بسبب اعتناقه المطلق لفكرة المعنى من غير تمييز للزاوية التي يراه منها.

2- نعت ائتلاف اللفظ والوزن

ومفهومه عنده يتلخص بكون الأسماء والأفعال تامة لا تضطرها ظروف الوزن الى زيادة او نقصان ولا يشوبها تقديم ولا تأخير ويفهم من هذا القسم انه يوافق قواعد النحو والصرف والغاية ألا يؤثر شيء على المعنى المقصود لا بحذف ولا زيادة ولا نقصان,وظاهر العنوان لهذا الباب يوحي بتوافق الدلالتين اللغوية والصوتية وكذلك موسيقى الألفاظ وأصوات الحروف وتناسبها إلا انه لا يخرج عن كونه قسما متعلقا بالنحو ووظائف الكلم وتأدية المعاني التي يتكشف لدينا شيئا فشيئا أنها أساس النظرية الشعرية عنده,وما يدفعنا إلى توهم القصد في دلالة العنونة لهذا القسم مفردة(ائتلاف) التي تصرف الذهن إلى التوافق بين اللفظ وموسيقاه,كما إن من الملاحظ انه يبتعد هنا عن

بحث الدلالات الإيقاعية للفظ كما انه ضد مبدأ الضرورة الشعرية,ونفهم أيضا انه يتحرر من النظرة الشكلية للنص بوصفه متكونا من ألفاظ تمثل أوعية المعاني وهو يهمل أيضا شأن التركيب والنظم في هذا القسم.

3- نعت ائتلاف المعنى والوزن

ويتحقق بتمام المعاني وعدم تأثرها بالنقصان ولا الزيادة التي قد يضطرها الشاعر بسبب الوزن كما يتحقق بعدم عدول المعنى عن الغرض ,وفي ظل فهمنا للمعنى وقيمته في بناء النص وإدراكنا للقيمة الإيقاعية للوزن لا نفهم سر الاقتضاب في معالجة هذا الائتلاف ,مع انه ينوه إلى انه سيفصل القول في عيوب هذا الباب بالأمثلة والشواهد,ومصطلح الائتلاف يتضمن موافقة الألفاظ للمعاني فتختار الألفاظ الجزلة والعبارات القوية للفخر والحماسة والكلمات الرقيقة والعبارات اللينة للغزل والمديح,وقد ذكر احد الباحثين أن ابن سلام استخدم هذا المصطلح حين وصف غير الشعر بأنه كلام مؤلف**(31)**وظاهر كلام ابن سلام انه لا يقصد به الائتلاف الذي ورد عند قدامة بل معناه كلام معقود مجتمع,لان قدامة ربطه بجزأين من أربعة عناصر كما تقدم تأتلف فتكون أقسام الشعر, وعالجه أيضا ابن رشيق وابن الأثير من غير تسميته**(32)** ويبدو أن قدامة قد وسع مفهوم الائتلاف لأنه تجاوز ثنائية اللفظ والمعنى وجعله مشتملا للوزن والقافية أي انه ادخل العنصر الإيقاعي في المعادلة ووسع بذلك مفهوم الائتلاف الذي يبدو انه لم يكن يتجاوز عند ابن سلام موضوع(التأليف) المتعلق بالنظم .

4- نعت ائتلاف المعنى مع القافية

ويتحقق بان تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم وملائمة**(33)**ويذكر من أنواع هذا القسم التوشيح وهو أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ومعناها متعلقا به حتى إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت قافيته,أي انه يشترط تعالقا إيقاعيا يتحقق بالتركيب الكلي للعبارات في البيت وبمخارج حروف اللفظة الواحدة,والنوع الآخر الإيغال وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى تاما في البيت من غير أن يكون للقافية في تمامه أي دور بل يأتي بها لحاجة الشعر إليها وتكون وظيفتها التجويد للمعنى لا أكثر,ويبدو من النظر إلى القسمين المنضويين تحت هذا الباب أن احدهما يعاكس الآخر ففي الوقت الذي يوصلنا المعنى إلى القافية الضرورية من أول البيت تتحول القافية إلى ما يشبه الفضلة في النوع الثاني,بل أن النوع

الثاني يفتح الباب لتجديد موسيقي يستغني فيه الشاعر عن القافية التي تقيد الشعراء وربما تضطرهم للضرورات الشعرية.

وتتباين هذه الأقسام الأربعة الرئيسة عنده في درجة أهميتها في مسالة رؤيته للنص المتكامل غير انه يجد نفسه مضطرا إلى الغوص في الجزئيات وصولا إلى الكليات أي من ادوار العناصر المكونة للنص ,وهذه النظرة تساعده على تنظيم أفكاره حول النص ككل باعتبار كونه متأثرا بالطروحات النقدية السابقة لعلماء الشعر ,ونفهم أننا بإزاء أربعة أنواع من النصوص لأنه يعترف بذلك في الفصل اللاحق الذي يقدم له بالقول(وإذ قد أتيت لى ما ظننت انه نعت للشعر وعددت أجناس ذلك وفصلت أنواعه فالآن أحب أن ابتدئ بذكر عيوب الشعر...)**(34)**, كما انه يؤكد ذلك بذكر عيوب كل نوع من الأنواع السابقة فمن عيوب القسم الأول وهو ائتلاف اللفظ والمعنى الإخلال وهو أن يترك من اللفظ ما يتم به المعنى والعيب الآخر عكس ذلك أي أن يزيد اللفظ بما يفسد المعنى,وأما عيوب ائتلاف اللفظ والوزن فهي الحشو والتثليم والتذنيب والتغبير والتعطيل,وعيوب ائتلاف المعنى والوزن المقلوب والمبتور وعيوب ائتلاف المعنى والقافية استدعاء التكلف في طلب القافية وان يؤتى بها لتحقق تناظرا مع أخواتها في السجع,وكل تلك العيوب مآخذ لما ما يمكن أن يشوب بناء النص وصورته من خلل لفظي أو لغوي أو معنوي أو إيقاعي,وهكذا تكتمل صورة النص المثالي عنده بتحقق كمال السلامة والصحة من الخلل والعيب والنقصان والزيادات غير المبررة,مع وجود بعض التناقضات التي يمكن اكتشافها من النظرة الكلية للنص وعناصره وأنواعه المتشكلة تبعا لائتلافاتها لاسيما ما تعلق منها بالقافية التي تتراوح بين الأهمية وعدمها بين قسم وآخر,وفي ثنايا ذلك كله نؤكد القيمة الأساسية للمعنى عنده فهو عنصر جوهري يحدد قيمة العناصر الباقية وله حضوره في كل جنس من أجناس الشعر التي ذكرها ولسنا مع من يقول ضد هذه الفكرة بدعوى انه وازن بينه وبين اللفظ في الأهمية.**(35)**

ثالثا- جدلية الإبداع والتلقي وأثرها في بناء النص بين قدامة وغيره

على الرغم من كون كتاب (نقد الشعر) يمثل جهدا نقديا تخصصيا واضحا إلا انه انطوى على توجه واضح نحو التميز عما سبقه من كتب وجهود فهو أول بحث من نوعه في تاريخ الدراسات الأدبية في اللسان العربي, يزيد في قيمته عدم وجود مؤلَف خالص في نقد الشعر بنظرة فنية خالصة شاملة لكل عناصره ومزاياه وعيوبه بل انه أول من ذكر كلمة (نقد) صراحة في صدر مؤلفه وهو نقطة التحول في الدراسات النقدية عند العرب والذي وضع أسسا وأصولا واضحة ثابتة لنقد الشعر**(36)**,وكان حريصا على أن تبدو أصالته واضحة فيه وثمرة تفكيره الشخصي وهي ظاهرة فريدة انفرد بها عن غيره لأنهم اعتادوا مظاهرة آرائهم بعضها ببعض وقدامة يمثل اتجاها ونسيجا خاصا وهو رجل يؤمن بالتخصص فلذلك قصر كتابه على الشعر وأهمل الكثير من القضايا التي اعتدنا رؤيتها في كتب من سبقه**(37)** ,كما إن آراءه في موضوعات نقدية شائعة عند القدماء كانت متميزة ومنها موضوع الصدق ومفهومه وقد عالجه في بحثه لقضية تناقض المواقف للشاعر الواحد بين نصين مختلفين ,وهو يشير إلى قضية عامة فقد يصف شيئا حسنا ويذمه لاحقا والنسبة لشرف المعنى وفحاشته يرى قدامة أن فحاشة المعنى ليست في نفسه مما يزيل جودة الشعر بل تكمن في طريقة تناوله وهو بذلك يراعي المتلقي أيما مراعاة باعتبار القيمة العليا للشعر في المجتمع **(38)**,وعلى عكس هذا المنطلق الأخلاقي الذي يمتزج بالغايات الفنية للكتاب يرى قدامة وجوب تجرد النقد للنظر في جودة الشعر ورداءته من غير اعتبار لموضوعه ونوعه والتي تطابق النظرة الرومانطيقية التي تقضي بالفصل بين غاية الشعر وغاية الأخلاق على حد تعبير احد الدارسين**(39)**, مع أن هذا الرأي يثير نوعا من التحفظ في تقبله لأننا إذا ما رجعنا إلى كتاب قدامة ومعالجاته في قضية المعنى مثلا وجدنا ما يخالف هذه النظرة كما في آرائه حول نعت المديح وإعجابه الشديد برأي عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) بشعر زهير فيقول(ما أحسن ما قاله عمر بن الخطاب في وصف زهير حيث قال انه لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال)**(40)**ثم تفصيله للفضائل وما يشتق منها في هذا الباب تفصيلا دقيقا لم نألفه عند غيره من النقاد ,بل إن هناك من رأى أن قدامة وتبعا لعنايته بأقسام الفضائل يرى أن أساس الشعر وجوهره المديح **(41)**,واستشهاداته الكثيرة بنماذج من الشعر الأخلاقي الطابع اكبر دليل على تلك النزعة الأخلاقية, بل إن باب المديح حظي بأطول معالجة له في كتابه ,وحتى في معالجته لموضوع نعت الهجاء وهو النقيض للمديح نراه يشترط لجودته ان يدخل في باب الأقوال

الصادقة وان تبين فيه المعرفة بالفضائل حتى يميز الشاعر صحيحها من باطلها**(42)**حتى وان كان تأكيده على وصل معاني الشعر بالفضائل النفسية وأضدادها يجر عليه الاعتراضات من النقاد والدارسين القدماء والمحدثين**.(43)**

وثمة إشارات وعبارات كثيرة أخرى تندرج في باب المنهج الأخلاقي الذي يسير جنبا إلى جنب مع المنهج الفني النصي في رؤيته للشعر بوصفه إبداعا إنسانيا يصدر عن عقل وقلب واعيين,فالنقد عنده يمتد ما بين قطبي الإبداع (الشاعر) والتلقي(القارئ أو السامع) وهو مسؤولية مشتركة تحتم على المبدع مراعاة الخصوصيات الحضارية والأخلاقية والفكرية عند المتلقي وعلى الثاني مسؤولية الحكم على النصوص بالجودة والرداءة على وفق معيارية فنية تأخذ بنظر الاعتبار البراعة والإتقان التي تتفاوت حظوظ الشعراء فيها,مع التأكيد على توهم أكثر الدارسين لقدامة بأنه اقتصر في دراسته للشعر على الاقيسة وإخضاعه للمنطق وقصور نظرته إليه من خلال حده بأربعة أركان اشتق منها أنواعه,مع أنهم يعترفون بكل الإضافات التي قدمها قدامة بن جعفر للنقد والبلاغة**(44)**,حتى أولئك الذين يرون أن قدامة في تعريفه للشعر وتحديده للعناصر التي يتألف منها لم يضف جديدا يعترفون بتمسك كثير ممن أتى من بعده من النقاد به فنقلوه بمعناه ولفظه **(45)**,وتتبين قيمة كتاب قدامة بن جعفر في القاعدة العريضة من المتأثرين بآرائه وطريقته في دراسة الشعر ونقده من كبار العلماء الذين جاءوا بعده كالامدي في الموازنة والقاضي الجرجاني في وساطته والمرزباني في الموشح وأبو هلال العسكري في الصناعتين وابن رشيق في العمدة وابن سنان في سر الفصاحة والجرجاني في الأسرار والدلائل وابن الأثير في المثل السائر وغيرهم لا بل أن هناك من نقل فصولا كاملة من كتاب نقد الشعر **(46)**, ويطول الكلام في ذلك التأثير ليؤسس لتلقي من طراز خاص يتمحور في المنهجيات التي انطبع فيها تأثيره وليكون له فضل كون متلقيه من العلماء بل من نخبة علماء الشعر والاهم برأينا انه حرر الدراسة الشعرية من الزيادات التي لا تخص الشعر بوصفه الفن الأهم عند العرب وهو ما رأيناه في مجمل دراسات السابقين التي افتقدت إلى التخصص الذي يقدمه قدامة بن جعفر بأرفع مستوى وأعلى طراز.

الهوامش

1- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب/217.
2- نقد الشعر/ 6.
3- قدامة بن جعفر والنقد العربي/78.
4- الفهرست /188.
5- المعجم الأدبي/ 283.

6- نقد الشعر/ 64.
7- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية/ 190.
8- عيار الشعر / 5.
9- العمدة1/77.
10- قدامة بن جعفر والنقد العربي/174.
11- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب /219 .
12- البيان والتبيين 1/67.
13- الشعر والشعراء1/75.
14- نفسه/ 90.
15- نقد الشعر/64.
16- دلائل الإعجاز /101.
17- الحيوان 3/131.
18- نقد الشعر/66.
19- مقالات في تاريخ النقد /160.
20- نقد الشعر/ 70.
21- نفسه/ 91,86,78,74.
22- نفسه/ 91.
23- المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي/324.
24- نفسه/20.
25- نفسه /123.
26- ديوانه /186 وفيه تدفنوا بدلا عن تكتموا,تقصدوا لدم نقصد).
27- شرح الديوان/15.
28- الديوان/91 .
29- نقد الشعر/ 155.
30- نفسه/ 165.
31- المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي/11 نقلا عن الطبقات 1/8 .
32- نفسه /11.
33- نقد الشعر /167.
34- نقد الشعر /172.
35- قدامة بن جعفر ونقد الشعر/294.
36- نفسه/427.
37- نفسه/ 430.
38- قضايا النقد القديم/32.
39- قدامة بن جعفر ونقد الشعر/419.
40- نقد الشعر/ 95.
41- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب/222.
42- نقد الشعر/ 114 .
43- تاريخ النقد الأدبي عند العرب / 137.
44- دراسات في النقد العربي/ 38.
45- في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي/20.
46- قدامة بن جعفر ونقد الشعر/ 433.

المصادر

1- البيان والتبيين-أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت255ه)- تحقيق عبد السلام هارون-مكتبة الخانجي-ط5.القاهرة-1985.
2- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع الهجري-طه احمد إبراهيم- دار الكتب العلمية- بيروت-2008.

3- الحيوان - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت255ه)- تحقيق عبد السلام هارون-مكتبة البابي الحلبي-ط2.القاهرة-1965.
4- دراسات في النقد العربي- عثمان موافي- دار المعرفة الجامعية-مصر-2000.
5- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني(ت471ه)-تحقيق:د.محمد رضوان الداية ود.فايز الداية-دار الفكر-ط1- دمشق- 2007.
6- ديوان أمريء القيس-تحقيق: مجمد أبو الفضل إبراهيم-دار المعارف-ط5- القاهرة.
7- شرح ديوان زهير بن ابي سلمى المزني-الأعلم الشنتمري(ت476ه)- المطبعة الحميدية المصرية-ط1-مصر-1323ه.
8- الشعر والشعراء-ابن قتيبة (ت276ه)-تحقيق:احمد محمد شاكر- دار المعارف-مصر-1958.
9- طبقات فحول الشعراء-ابن سلام الجمحي(ت231ه)-تحقيق:محمود محمد شاكر-دار المعارف-مصر-1952.
10- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده-ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني(ت463ه)-تصحيح محمد بدر الدين النعساني-مطبعة السعادة-ط1- مصر-1907.
11- الفهرست-ابن النديم-دار المعرفة للطباعة-بيروت.
12- في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم- د.عثمان موافي-دار المعرفة الجامعية- مصر-2000.
13- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي-د.بدوي طبانه—مكتبة الانجلومصرية-ط3-مصر-1969.
14- قضايا النقد القديم-محمد صايل حمدان وآخرون-دار الأمل-ط1-1990.
15- كتاب عيار الشعر –ابن طباطبا العلوي(ت322ه)- تحقيق:د.عبد العزيز بن ناصر المانع-دار العلوم للطباعة والنشر-الرياض-1985.
16- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب-د.ابتسام مرهون الصفار ود.ناصر حلاوي- دار الحكمة للطباعة-بغداد-1990.
17- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية-د.ناصر الدين الأسد- دار المعارف-ط5-مصر.
18- المصطلح النقدي في التراث العربي- محمد عزام-دار الشرق العربي- ط1-
19- مقالات في تاريخ النقد –د.داود سلوم-وزارة الثقافة والاعلام-بغداد-1981.
20- المعجم الأدبي-جبور عبد النور- دار العلم للملايين-ط2-بيروت-1984.
21- نقد الشعر- أبو الفرج قدامة بن جعفر(ت327ه)-تحقيق:د.مجمد عبد المنعم خفاجي- دار الكتب العلمية-بيروت.